# الذاتُ الغربيَّة في زَمنِ الفَراغِ الوجودي

رئيس التحرير
■ د. محمد محمود مرتضى

## مقدّمة

تتقدّم «الذات» في قلب التجربة الغربيَّة الحديثة بوصفها العقدة الأكثر تعقيدًا في البناء الحضاري المعاصر؛ إذ لم تعد الذات مجرَّد مفهوم نظري يُستعمل في الفلسفة أو علم النفس، بقدر ما غدت الإطار الذي تُفهم من خلاله المعرفة، وتُقاس به القِيم، ويُعاد تنظيم العالم على أساسه. بيد أنّ هذه المركزيَّة، التي رُوِّج لها بوصفها ذروة التحرّر الإنساني، سرعان ما كشفت عن وجهها الآخر، فبدت ذات مثقلة بذاتها، متعبة من فائض المسؤوليَّة، ومأزومة في علاقتها بالعالم وبنفسها في آن واحد.

لقد تشكّلت الذات الغربيَّة الحديثة في سياق تاريخي وعد الإنسان بالتحرّر الكامل: تحرّر من المقدّس، ومن المرجعيات العليا، ومن التقاليد الموروثة، ومن كلّ سلطة تُفرض عليه باسم الحقيقة أو الأخلاق أو الغاية. بدا العقل، في هذه الرؤية، قادرًا على أنْ يكون مرجعًا مكتفيًا بذاته، وأنْ يؤسِّس عالمًا عقلانيًّا خالصًا، يُدار وفق قوانين واضحة، ويمنح الإنسان سيادة غير مسبوقة على الطبيعة والمجتمع والتاريخ. لكنّ هذا المشروع، الذي بدأ بوصفه مسارًا للتحرّر، انتهى إلى وضع الذات في موقع لم يكن محسوبًا بدقّة، أعني موقع المرجع الوحيد، والمسؤول الأوحد،

في عالم جُرِّد تدريجيًّا من أيّ أفق يتجاوزها.

من هنا تبدأ الإشكاليَّة، لا بوصفها خللاً لاحقًا في التطبيق، وإنَّما بوصفها سؤالاً بنيويًّا في أصل التصوّر نفسه. فحين تُنصَّب الذات مركزًا لكلّ شيء، يتجاوز السؤال مقدار ما كسبه الإنسان من حريَّة أو معرفة، ليرتبط بالثمن الوجودي الذي دُفع مقابل هذا التمركز. فهل تستطيع الذات، مهما بلغت من وعي وقدرة، أنْ تتحمّل وحدها عبء المعنى؟ وهل يمكن للإنسان أنْ يعيش حياة قابلة للسكن حين يُطلب منه أنْ يكون أصل قِيمه وغاياته دون سند يتجاوزه؟

إنَّ الحديث عن "أزمة الذات" لا يُقصد به توصيف حالة نفسيَّة فرديَّة، ولا التعبير عن حنين رومانسي إلى أنماط ماضية من الوجود، بقدر ما يُشير إلى مأزق حضاري يُتكشّف في مستويات متعدّدة. فالأزمة لا تظهر فجأة، ولا تتّخذ صورة انهيار شامل، وإنَّما تتسلل تدريجيًّا إلى بنية الحياة الحديثة، وتفرض نفسها في الأسئلة التي يعجز الخطاب السائد عن الإجابة عنها، أو يتجنَّب طرحها أصلاً. وما يزيد من تعقيد هذا المأزق أنَّ أدوات الحداثة نفسها — العقل، والحريَّة، والفردانيَّة — هي في الوقت ذاته أدوات الكشف عن الأزمة، وحدود القدرة على تجاوزها.

على أنّ ذلك لا يعني أنَّ التجربة الغربيَّة الحديثة يمكن اختزالها في الفشل أو الإنهاك، ولا أنَّ منجزاتها الفكريَّة والعلميَّة فقدت قِيمتها. بقدر ما يعني أنَّ هذه التجربة بلغت مرحلة تتطلَّب مساءلة داخليَّة جذريَّة؛ لأنَّ النموذج الذي أدار علاقتها بالإنسان والمعنى لم يعد قادرًا على تفسير نتائجه، ولا على احتواء تناقضاته. فحين تتَّسع الهوَّة بين ما يُنتظر من الذات أنْ تكونه، وما تستطيع فعليًّا أنْ تحياه، يتحوّل التوتر إلى حالة دائمة.

وفي هذا السياق، تبرز الحاجة إلى إعادة النظر في المسلّمات التي رافقت صعود الذات الغربيَّة الحديثة؛ سواء منها مسلّمة الاكتفاء الذاتي، أم مسلّمة حياد العقل، أم مسلّمة أنَّ التحرّر يتحقَّق تلقائيًّا بمجرّد إزالة القيود. فهذه المسلّمات، التي أدّت دورًا تاريخيًّا في تفكيك أنماط قديمة من الهيمنة، لم تُختبر بما يكفي من حيث قدرتها على بناء إنسان متوازن، قادر على الجمع بين الحريَّة والمعنى، وبين الاستقلال والطمأنينة.

إنّ ما يعيشه الإنسان الغربي اليوم لا يمكن فهمه عبر خطاب واحد أو حقل معرفي واحد. فالمأزق يتوزّع على مستويات متداخلة تتعلّق في بنية التصوّر للذات، وفي طبيعة العلاقة بين

الحريَّة والسلطة، وفي تجلّيات القلق والفراغ، وفي العجز عن تخيّل أفق يتجاوز إدارة الحاضر؛ لذلك لا يكون تناول هذه الأزمة مجديًا إذا ما اقتصر على وصف أعراضها، أو إذا عُولِجت كلّ ظاهرة بمعزل عن الإطار الذي أنتجها.

من هنا، فإنَّ مقاربة الذات الغربيَّة في زمن الفراغ الوجودي تقتضي تتبَّع مسار تشكّل الأزمة، والكشف عن منطقها الداخلي، ورصد تجلّيّاتها المختلفة، ثمَّ التوقّف عند حدود النموذج الذي أنتجها، سعيًا إلى فهم أعمق لشروط حياة إنسانيَّة أقلّ إنهاكًا. فالسؤال الذي تطرحه هذه الأزمة يرتكز في: أيّ تصوّر للإنسان جعل الذات تصل إلى هذا الحدّ من التعب؟

في الحقيقة، إنّ هذه الأسئلة تُطرح من موقع الوعي بأنَّ الأزمة، حين تبلغ هذا المستوى من العمق، تصبح مناسبة لإعادة التفكير، لا للإنكار أو التجميل. ومن هنا يبدأ المسار التحليلي، بوصفه محاولة لفهم جدليَّة الإنسان الحديث، كما تكشّفت في التجربة الغربيَّة، حين وُضعت الذات في مركز العالم، ثمَّ تُركت تواجه وحدها نتائج هذا التمركز.

## أولًا: تشخيص الأزمة: من مركزيَّة الذات إلى انكسارها الداخلي

تظهر أزمة الإنسان الحديث في الغرب أنّها تشكّلت تدريجيًّا في صلب المشروع الذي جعل من «الذات» محورًا نهائيًّا للوجود والمعرفة والقِيم. فمنذ اللحظة التي جرى فيها نقل مركز الثقل من المرجعيّات المتعالية إلى الذات الإنسانية، بدا أنّ الإنسان قد استعاد زمام مصيره، وأنَّه تحرّر من سلطات خارجيَّة كبّلته طويلًا. لكنّ هذا التحوّل، الذي رُوِّج له بوصفه ذروة النضج الإنساني، حمل في بنيته توتّرًا خفيًّا لم يتأخّر في الظهور.

إنَّ مركزيَّة الذات لم تعنِ فقط الاعتراف بقدرة الإنسان على التفكير والاختيار، وإنَّما أسَّست لوضع تكون فيه الذات مطالَبة بأنْ تكون أصل المعنى وغايتَه في آن واحد. ومع تراجع الأطر الكليَّة التي كانت تمنح الوجود انتظامه ودلالته، وُضعت الذات في مواجهة فراغ لم تكن مهيَّأة لتحمّله. فأنْ يكون الإنسان مرجعًا نهائيًّا يعني أنْ يتحمّل عبء التأسيس وحده، وأنْ يواجه سؤال المعنى دون سند يتجاوزه. هنا بدأت الأزمة في التشكّل، لا بوصفها صدامًا خارجيًّا، بقدر ما هي انكسارًا داخليًّا صامتًا.

لقد تحوّل الوعد بالسيادة إلى اختبار دائم، وتحوّلت الحريَّة من إمكان للانعتاق إلى عبء وجودي. فكلّ خيار بات يحمل في داخله احتمال الفشل، وكلّ معنى بات مؤقّتًا وقابلاً للنقض. ومع توسّع دائرة الإمكانات، تقلّص الإحساس باليقين. فلم تعد الذات تعرف نفسها من خلال ما تنتمي إليه، وإنّما من خلال ما تختاره في كلّ لحظة، وما يمكن أنْ تتراجع عنه في اللحظة التالية. هذا الانتقال من الثبات النسبي إلى السيولة الدائمة أنتج ذاتًا أكثر هشاشة.

إنّ ما يميّز هذه الأزمة أنَّها تتسرّب إلى تفاصيل الحياة اليوميَّة. فالذات الغربيَّة الحديثة تبدو ظاهريًّا واثقة، ومستقلّة، وقادرة على إدارة شؤونها، لكنّها في العمق تعيش توتّرًا مستمرًّا بين ما يُنتظر منها أنْ تكونه، وما تستطيع فعليًّا أنْ تحقّقه. هذا التوتّر يولّد شعورًا دائمًا بعدم الاكتمال، وكأنَّ الوجود نفسه أصبح مشروعًا مؤجَّلاً، لا يُسمح له بالاستقرار. وهنا يتحوَّل السعي إلى تحقيق الذات من مسار نمو إلى دائرة استنزاف لا تنتهي.

ويتفاقم هذا الانكسار الداخلي حين نلاحظ أنَّ مركزيَّة الذات أعادت إنتاج أشكال السيطرة بصيغ أكثر تعقيدًا. فالإنسان الذي تحرّر من السلطة التقليديَّة وجد نفسه خاضعًا لمنظومات جديدة لا تعمل عبر الإكراه المباشر، وإنَّما عبر معايير الأداء، والنجاح، والصورة، والتقويم المستمرّ، فتظهر الطلبات بصيغة "كن" بدل صيغة "افعل". وفي هذا الطلب المتواصل على التشكّل، تفقد الذات قدرتها على الترسّخ، وتعيش انقسامًا بين ذات تُعرض، وذات تُستنزف.

ومن هنا، لا يمكن فهم تصاعد مشاعر القلق، والفراغ، وفقدان المعنى بوصفها ظواهر نفسيَّة معزولة. إنَّها مؤشَّرات على خلل أعمق في التصوّر الغربي للإنسان. فحين تُختزل الذات في كونها مركزًا وظيفيًّا لإنتاج المعنى، دون أنْ يكون هذا المعنى متجذّرًا في أفق أوسع، تصبح الحياة سلسلة من المَهامّ، لا مسارًا ذا دلالة. ومع غياب الغاية يتحوّل المستقبل إلى مصدر قلق بدل أنْ يكون مجالاً للأمل.

إنَّ انكسار الذات الغربيَّة الحديثة لا يعني عجزها عن الفعل أو التفكير، وإنَّما يعني استنزافها الداخلي. إنَّها ذات تعمل باستمرار، لكنَّها لا تطمئن؛ تختار دائمًا، لكنَّها لا تستقر؛ تنتج المعنى، لكنّها لا تثق به. هذا الانكسار لا يظهر في خطاب واحد أو نظريَّة بعينها، بقدر ما يتوزّع بين الحقول كلّها: في الفلسفة التي أعلنت نهاية الميتافيزيقا دون أنْ تعثر على بديل جامع، وفي

علـم النفس الذي يواجه أعراضًا تتجاوز أدواته، وفي الثقافة التي تحتفي بالحريَّة فيما تعجز عن الإجابة عن سؤال الغاية.

وهكذا، تمثّل أزمة الذات الغربيَّة الحديثة نتيجة منطقيَّة لمركزيَّة أُطلقت بلا ضوابط، ولتحرّر فُصِـلَ عن أيّ أفق أعلى منه. إنَّها أزمة ذات طُلب منها أنْ تكون كلّ شيء، فانتهت إلى الشـعور بأنَّها مهدّدة باللا شيء. ومن هذا التشخيص الأولي يبدأ فهم جدليَّة الإنسان الحديث في الغرب، بوصفها علامة على مأزق حضاري لم يعد من الممكن تجاهله.

## ثانيًا: جدليَّة التحرّر والسيطرة: حين ينقلب الوعد على صاحبه

إذا كانت الذات الحديثة قد تشكّلت تحت راية التحرّر، فإنّ المسار الذي سلكته لاحقًا يكشف عن مفارقة قاسـية؛ إذ كلّما اتّسعت دائرة التحرّر المعلن، ازدادت أشكال السيطرة الفعليَّة تعقيدًا وخفاءً. فلم يعد القيد يأتي من الخارج بصورته الكلاسيكيَّة، ولم تعد السلطة تُمارَس عبر الإكراه الصريـح أو المنع المباشر، وإنّما أعادت إنتاج نفسـها داخل بنيَة الحريَّة ذاتها. وهكذا نشـأت جدليَّة دقيقة بين التحرّر والسـيطرة، تقوم على التداخل العميق؛ حيث يغدو التحرّر نفسه وسيطًا للضبط، والاختيار أداة لإعادة التشكيل.

في لحظته التأسيسيَّة، بدا التحرّر الغربي قطيعة حاسمة مع أنماط الهيمنة التقليديَّة. لقد تحرّر الإنسان من سلطان الكنيسة، ومن الامتثال القسري للأعراف، ومن الامتدادات الصلبة للتقاليد. لكنّ هذا التحرّر لم يكن نهاية السـلطة، بقدر ما كان بداية انتقالها من المسـتوى الخارجي إلى المسـتوى الداخلي. فحين أُقصيت السـلطة المتعالية، لم تُلغَ الحاجـة إلى التنظيم، وإنَّما أُعيد توطينها في الذات نفسها. فلم يعد الإنسان خاضعًا لأمرٍ يُفرض عليه، بقدر ما أصبح مسؤولًا عن ضبط ذاته، وإدارة رغباته، وتوجيه سلوكه بما ينسجم مع منظومات جديدة أكثر تجريدًا.

تكمن خطورة هذا التحوّل في أنَّه يُفرغ السيطرة من مظهرها القسري، ويمنحها طابعًا اختياريًّا. فالإنسان يشـعر بأنَّه يختار، ويظن أنَّه يمارس حريته. ومع ذلك، فإنَّ هذا الاختيار يجري ضمن شـبكة كثيفة من المعايير غير المعلنة: النجاح، والكفاءة، والمرونة، والقابليَّة للتكيّف، والتوافق مع إيقاع السوق والتقنيَّة. وهكذا تُعاد صياغة الحريَّة لتصبح قدرة على الامتثال الذكي.

لقد استبدلت الحداثة الغربيَّة مفهوم الطاعة بمفهوم الأداء. فقد أصبح المطلوب من الفرد أنْ يحقّق ذاته وفق مقاييس جاهزة سلفًا. والنجاح لم يعد حالة خُلُقيَّة أو إنسانيَّة، وإنَّما مؤشَّرات رقميَّة، وتقويمات، وإنجازات قابلة للقياس. وفي هذا السياق، تتحوَّل الذات إلى مشروع دائم للتطوير؛ لأنَّ التوقّف يُفسَّر بوصفه فشلاً. وهنا يظهر وجه السيطرة الجديد: ذات لا يُسمح لها بالاكتمال؛ لأنَّها إنْ اكتملت خرجت من دائرة التحسين المستمر.

وهنا، يمثّل السوق أحد أبرز تجلّيات هذه السيطرة الناعمة. فالسوق تفرض أوامرها بالإغراء لا بالإكراه. إنَّها تقول للإنسان أنت "تستحقّ" بدل كلمة "يجب". وهكذا تُعاد صياغة الرغبات عبر التحفيز المستمرّ. كلّ شيء يصبح قابلاً للاستهلاك: الجسد، والعلاقات، والمشاعر، وحتى الهويَّة. ومع تعميم منطق السوق، لم تعد الذات تمتلك رغباتها بقدر ما تُدار رغباتها. فما يبدو خيارًا شخصيًّا هو في الغالب استجابة لنموذج جاهز صُمّم بعناية؛ حيث يشعر الفرد أنَّ ما يريده هو ما اختاره بنفسه.

ولا يقل دور التقنيَّة في تعميق هذه الجدليَّة. فالتقنيَّة، التي وُعِدت بأنْ تكون أداة لتحرير الإنسان من الجهد والقيود، تحوَّلت إلى إطار شامل لإعادة تنظيم الزمن والانتباه والسلوك. فقد غدت التقنيَّة بيئة كاملة يعيش داخلها الإنسان. تُقاس القيمة بسرعة الاستجابة، وبالقدرة على الحضور الدائم، وبالاستعداد المستمرّ للتحديث. في هذا السياق، يُعاد تشكيل الوعي نفسه؛ حيث يُختزل التفكير في ردود فعل، ويُستبدل التأمّل بالإشعارات، ويُستنزف الانتباه في تدفّق لا ينتهي. فالسيطرة هنا تعمل عبر الإغراق.

إنَّ أخطر ما في هذه الجدليَّة أنَّ الذات تُستدرَج إلى لعب دور الحارس على نفسها. فالإنسان الحديث يراقب ذاته، ويقوِّمها، ويقارنها بغيرها، ويشعر بالذنب إذا لم يرقَ إلى المعايير السائدة. وهكذا استغنت السلطة عن أنْ تكون بحاجة إلى رقيب خارجي؛ لأنَّ الرقابة قد استُبطنت. وهذا الاستبطان يجعل السيطرة أكثر فاعليَّة؛ لأنَّها تُمارَس باسم المسؤوليَّة الفرديَّة. وهكذا لا يُنسب الفشل إلى المنظومة، وإنَّما إلى الذات نفسها، التي تُتَّهَم بالتقصير، أو ضعف الإرادة، أو سوء الإدارة.

في هذا الإطار، تتآكل فكرة التحرّر ذاتها. فالحريَّة التي تُعرَّف بوصفها قدرة على الاختيار داخل

منظومــة مغلقة هي حركة داخل قفص واســع. يُمنح الفرد عددًا هائــلاً من الخيارات، لكن دون أنْ يُمنح القدرة على مســاءلة الشروط التي تنتج هذه الخيارات. وهنــا تتجلّى المفارقة؛ إذ كلّما تضاعفت البدائل، تقلّص الإحســاس بالقدرة على الفعل الجذري. فالاختيار المستمرّ يستهلك الطاقة الوجوديَّة، ويحوّل الحريَّة إلى عبء ذهني ونفسي.

يتّضــح هذا الانقلاب أيضًــا في الخطاب النفسي المعاصر، الذي كثيرًا ما يُســتخدم لتكييف الذات مع الواقع بدل مســاءلته. فبدل طرح السؤال عن عدالة المنظومة أو معقوليَّة الإيقاع الذي يُفرض على الإنســان، يُطالَب الفرد بتطوير مهارات التكيّف، وإدارة الضغط، وتعزيز الإيجابيَّة. وهكذا يتحوَّل العلاج إلى أداة لإدامة الوضع القائم، لا لتحرير الإنســان منه. فالسيطرة هنا تتَّخذ شكل الرعاية، بدل القهر.

ومــع تراجع الأطر الجماعيَّة، يُدفع الفرد إلى تحمّل مصيره وحده. فالفشــل ســيُفهم بوصفه إخفاقًا شــخصيًّا. وهذه "الفردنة" المفرطة تُضاعف الإحســاس بالوحدة؛ لأنَّها تقطع الصلة بين المعاناة الفرديَّة والسياق العام. فكلّ ذات تعاني في صمت، وتظنّ أنَّ أزمتها خاصة، بينما هي في الحقيقة جزء من نمط عام. وهنا تبلغ السيطرة ذروتها، حين تُفصل المعاناة عن أسبابها.

على أنّ جدليَّة التحرّر والسيطرة لا تعني أنَّ الإنسان الحديث فَقَدَ كلّ إمكان للفعل أو المقاومة، لكنَّها تكشف أنَّ التحرّر، حين يُفصل عن سؤال المعنى والغاية، يصبح عرضة للاحتواء. فالحريَّة التــي لا تعرف لمــاذا تتحرَّر، ولا إلى أين تتجه، يســهل توجيهها. ومع غيــاب الأفق الخُلُقي أو الغــائي، تتحوَّل الحريَّة إلى حركة دائريَّــة، تدور حول الــذات دون أنْ تتجاوزها. وهذا الدوران يعمّق الإنهاك.

من هنــا، لا يمكن فهم أزمة الذات الغربيَّة الحديثة بمعزل عن هذه الجدليَّة. فالذات ليســت ضحيَّة سلطة خارجيَّة فحسب، ولا فاعلاً حُرًّا على نحو مطلق، وإنَّما هي نتاج علاقة معقّدة بين تحرّر معلن وسيطرة مضمرة. وكلَّما تجاهل الخطاب السائد هذا التعقيد، ازداد رسوخ الأزمة.

في الحقيقة، إنّ الوعد الذي انقلب على صاحبه كان وعدًا قُدِّم دون وعي كافٍ بحدود الإنسان. فالذات التي تُترك بلا أفق تتجاوز فيه ذاتها، تُســتنزف في إدارة نفســها، وتفقد قدرتها على الفعل التاريخي. وهنا تتَّضح ملامح المأزق؛ إذ إنّ أيَّ تحرّر بلا معنى ســيولّد سيطرة بلا قهر، وسيطرة

بلا قهر ستولّد ذاتًا مرهقة، تبدو حُرَّة ظاهرًا، لكنَّها في العمق مُقيَّدة بمنطق لم تعد تراه.

ماذا نستنتج من هذا؟ نستنتج أنّ تشكّل جدليَّة التحرّر والسيطرة قَلَبَ أزمة الإنسان الحديث. فالأزمة لا تتمثّل بكون هذه الجدليَّة مثّلت انحرافًا عن مشروع الحداثة، وإنَّما في الحقيقة هي إحدى نتائجه المنطقيَّة حين يُختزل الإنسان في كونه ذاتًا مستقلَّة بلا جذور، وعقلاً أداتيًّا بلا غاية، وحُريَّة بلا أفق. ومن هنا تنبع الحاجة إلى إعادة التفكير في معنى التحرّر نفسه، بوصفه قدرة على بناء علاقة مسؤولة بين الذات والعالم، وبين الاختيار والمعنى، وبين الإنسان وما يتجاوز الإنسان.

## ثالثًا: تجلّيات الأزمة – النفس، والهويَّة، والمعنى

إذا كانت أزمة الذات الحديثة قد تشكّلت في بنيتها العميقة، فإنَّها لا تبقى حبيسة التنظير الفلسفي أو التحليل المفهومي، بل تظهر بوضوح في مظاهر متعدّدة تمسّ التجربة الإنسانيَّة اليوميَّة. فالأزمة، في صورتها المعاصرة، تتجسَّد في اختلالات نفسيَّة متنامية، وفي قلق هويَّتي واسع، وفي شعور عام بتآكل المعنى. هذه التجلّيات هي تعبيرات متداخلة عن مأزق واحد: ذات لم تعد تعرف كيف تسكن العالم دون أنْ تُستنزف فيه.

على المستوى النفسي، يبرز القلق بوصفه السمة الأبرز للإنسان الحديث. لكنّ هذا القلق لا يُختزل في خوف محدَّد أو تهديد واضح، وإنَّما يتَّخذ طابعًا وجوديًا عامًا. إنَّه قلق بلا موضوع ثابت، وقلق من الفشل، ومن التخلّف، ومن عدم الكفاية، ومن ضياع الفرص، ومن المستقبل بوصفه مجالاً مفتوحًا على الاحتمالات غير المضمونة. هذا القلق لا ينشأ من ضعف الفرد بقدر ما ينشأ من وضعه في عالم يُطالَب فيه بالإنجاز المستمرّ دون أنْ يُمنح معيارًا نهائيًّا لما يعنيه الإنجاز نفسه.

هنا، يتحوّل القلق إلى حالة بنيويَّة. فالفرد يعيش تحت ضغط دائم ليكون "أفضل نسخة من نفسه"، دون أنْ يعرف متى يكون قد بلغ هذه النسخة. ومع تآكل الإحساس بالغاية، تصبح الجهود المبذولة فاقدة للطمأنينة. فكلّ نجاح مؤقت، وكلّ استقرار هشّ، وكلّ شعور بالرضا سرعان ما يتلاشى أمام مطلب جديد. وهكذا تدخل الذات في حلقة من السعي الدائم؛ حيث يُؤجَّل الشعور بالاكتفاء إلى أجل غير مسمَّى.

ويتقاطع هذا القلق مع انتشار الاكتئاب بوصفه الوجه الآخر للأزمة. فإذا كان القلق تعبيراً عن فائض التوتر، فإنَّ الاكتئاب يمثّل لحظة الانكسار بعد الاستنزاف. إنَّه اليأس من القدرة على بناء سرديَّة ذاتيَّة متماسكة. وفي هذا السياق، يكون الاكتئاب تعبيراً عن انسحاب الذات من عالم لم تعد ترى فيه ما يستحقّ الاستثمار الوجودي. فحين يصبح الوجود وظيفة بلا معنى، يتحوّل الانسحاب إلى ردّ فعل صامت.

أما على مستوى الهويَّة، فتتخذ الأزمة طابعًا أكثر تعقيدًا. فالذات الحديثة أصبحت تُعرّف نفسها من خلال اختيارات فرديَّة متحركة. والهويَّة لم تعد معطى يُكتشَف، وإنَّما مشروعًا يُصنَع باستمرار. وفي الظاهر، يبدو هذا التحوّل علامة على التحرّر، لكنَّه في العمق يضاعف الإحساس بالهشاشة. فكلّ تعريف للذات يبقى مؤقّتًا، وكلّ انتماء قابلاً للتعديل، وكل سرديَّة ذاتيَّة مهدَّدة بالتفكّك عند أول اهتزاز.

تُنتج هذه السيولة الهويَّتيَّة شعورًا دائمًا بعدم الاكتمال. فالذات تعيش بوصفها سلسلة من اللحظات المتجاورة، التي يصعب ربطها في قصة واحدة ذات معنى. ومع غياب السرديَّة الجامعة، تفقد التجربة الإنسانيَّة بعدها الزمني العميق، ويتحوّل الماضي إلى عبء، والمستقبل إلى مصدر قلق، والحاضر إلى لحظة استهلاك. في هذا الإطار، تتحوَّل الهويَّة إلى عبء آخر يجب إدارته.

ويتفاقم هذا المأزق حين تُربط الهويَّة بمنطق العرض والتقويم. فالذات باتت تُعرّف بما تُظهره للآخرين: الصورة، والحضور الرقمي، والاعتراف الخارجي، وكلّها عناصر تدخل في تشكيل الإحساس بالذات. وهنا تصبح الهويَّة مرهونة بالنظر الخارجي، لا بالتجربة الداخليَّة. هذا الارتهان يخلق فجوة بين الذات كما تُعاش، والذات كما تُعرَض، وهذا ما يضاعف الشعور بالاغتراب. فالإنسان قد ينجح في تسويق صورته، لكنه يعجز عن مصادقة نفسه.

أما المعنى، فهو المجال الذي تتجمع فيه كلّ هذه التجليات. فالأزمة النفسيَّة والهويَّتيَّة ليست إلا انعكاسًا لانهيار أعمق. فبعد تفكيك المرجعيَّات الكبرى، والتشكيك في كلّ سرديَّة شاملة، وجد الإنسان نفسه في عالم بلا اتجاه واضح. فلم يعد هناك سؤال نهائي يُنظّم الأسئلة الجزئيَّة، ولا غاية عُليا تمنح الأفعال وزنها الوجودي. على أنَّ المعنى هنا لا يختفي فجأة، وإنَّما يتآكل

تدريجيًا، حتى يصبح مسألة شخصيَّة محضة لا رابط بينها وبين العالم.

إنَّ هذه التجلّيات الثلاث — النفسيَّة، والهويَّتيَّة، والمعنويَّة — لا تعمل بمعزل عن بعضها، بل تتغذَّى بعضها ببعض. ففقدان المعنى يعمّق القلق، والقلق يزعزع الهويَّة، واضطراب الهويَّة يزيد الشعور بالفراغ. وهكذا تدخل الذات في دائرة مغلقة، يصعب الخروج منها عبر الحلول الجزئيَّة. فالعلاج النفسي، مهما بلغ من التطوّر، لا يستطيع وحده معالجة أزمة معنى، وإعادة تعريف الهويَّة، مهما بدت جذّابة، لا تحلّ مشكلة الفراغ الوجودي، وإدارة الوقت، مهما كانت فعّالة، لا تعوّض غياب الغاية.

من هنا، تكشف تجلّيات الأزمة أنَّ المأزق ليس في الإنسان بوصفه فردًا، وإنَّما في التصوّر الذي حُدّد له. فالذات الحديثة فشلت لأنَّها حُمّلت ما لا يُحتمل: أنْ تكون أصل نفسها، وغاية وجودها، ومعيار قيمتها. وحين تعجز عن هذا الدور، تُتَّهَم بالعجز، بدل مساءلة الإطار الذي وضعها فيه. إنَّ فهم هذه التجليات يهدف إلى إدراك وحدة الأزمة خلف تنوّع مظاهرها.

وهكذا، تصبح أزمة النفس، وأزمة الهويَّة، وأزمة المعنى وجوهًا متعدّدة لسؤال واحد: كيف يمكن للإنسان أنْ يعيش حياة ذات دلالة في عالم نزَع عن نفسه كلّ أفق يتجاوز اللحظة؟ هذا السؤال، بما يحمله من ثقل، ينبغي أنْ يُجاب عنه عبر إعادة التفكير في تصوّر الإنسان لذاته، ولمكانه في العالم، ولعلاقته بما يمنحه المعنى. ومن دون هذا الأفق، ستظلّ التجلّيات تتكاثر، وستظلّ الذات تدور في فلك أزمة لا تجد لها اسمًا نهائيًّا.

## رابعًا: مأزق النموذج وإمكان التفكير في أفق مغاير

تبلغ أزمة الذات الغربيَّة الحديثة ذروتها حين يتَّضح أنَّ ما يعيشه الإنسان ليس خللاً قابلاً للإصلاح ضمن الإطار نفسه، وإنَّما نتيجة منطقيَّة لنموذج بلغ حدوده القصوى. فالمشكلة تكمن في التصوّر الكامن خلف قِيَم الحداثة: تصوّر الإنسان بوصفه ذاتًا مكتفية بذاتها، وقادرة على إنتاج المعنى من داخلها، ومؤهّلة لتحمّل عبء الوجود وحدها. وحين يتهاوى هذا التصوّر، لا تعود الحلول الجزئيَّة كافية؛ لأنَّ الأزمة أعمق من أنْ تُدار تقنيًا.

إنَّ أحد أخطر مظاهر هذا المأزق يتمثَّل في العجز عن تخيّل بديل حقيقي. فالذات الحديثة،

رغم وعيها بتعبها وإنهاكها، تجد نفسها محاصَرة داخل الأفق ذاته الذي أنتج أزمتها. فكلّ محاولة للتجاوز تُعاد صياغتها بلغة النموذج نفسـه، أي مزيد مـن الحريَّة الفرديَّة، ومزيد من الخيارات، ومزيد من التكيّف. لكن ما لا يُمسّ هو السـؤال الجذري: هل يكفي أنْ تكون الذات مركزًا لكلّ شيء كي تكون قادرة على الحياة؟ أم أنَّ هذا التمركز ذاته هو مصدر الإنهاك؟

في هذا السـياق، يصبح النقد ضرورة وجوديَّة. نقد لا يهـدف إلى الهدم من أجل الهدم، ولا إلى اسـتبدال يقين مغلق بيقين آخر، وإنَّما إلى كشف حدود التصوّر السائد، وإعادة فتح الأسئلة التي جرى إغلاقها باسم التقدّم أو الواقعيَّة. فحين يمُنَع السؤال عن الغاية بدعوى أنَّه ميتافيزيقي، أو يُقصى سـؤال المعنى بحجَّة نسبيَّته، يتحوَّل الإنسان إلى كائن يدير حياته دون أنْ يعرف لماذا يعيشها. وهذا الصمت المفروض على الأسئلة الكبرى هو أحد وجوه الأزمة.

إنَّ التفكير في أفق مغاير ينبغي أنْ يعني إعادة الاعتبار لفكرة أنَّ الإنسان لا يكتمل بذاته وحدها. فالذات، لكي تكون متوازنة، تحتاج إلى ما يتجاوزها: معنى لا تختلقه بالكامل، وغاية لا تختزلها في الأداء، وقيم لا تُقاس فقط بالمنفعة. ومن دون هذا البعد، ستتحوَّل الحريَّة إلى حركة بلا اتجاه، ويتحوّل العقل إلى أداة بلا حكمة، ويتحوّل الوجود إلى إدارة زمنيَّة خالية من العمق.

كما أنَّ هذا الأفق المغاير يستدعي إعادة النظر في العلاقة بين الفرد والجماعة، وبين الخاص والمشترك. فالفردنة المطلقة أنتجت ذاتًا أكثر وحدة. فالإنسان، بطبيعته، كائن ارتباطي، يتشكّل في شـبكة من المعاني المشتركة، لا في عزلة مكتفية بذاتها. وإعادة الاعتبار إلى هذا البعد تعني تحرير الفرد من وَهْم الاكتفاء، ومن عبء تحمّل الوجود وحده.

وفي المسـتوى المعرفي، يقتضي هذا الأفق تجاوز اختزال العقل في بعده الأداتي، واستعادة وظيفته بوصفه وسـيلة للفهم، لا مجرّد وسـيلة للإدارة. فالعقل الذي لا يُسمح له بطرح الأسئلة الكبرى، ولا بتجاوز حدود النفع المباشر، يفقد قدرته على الإضاءة، حتى وإنْ تضاعفت معارفه. إنَّ أزمة المعنى هي نتيجة لتقليص العقل إلى وظيفة تقنيَّة، تفصل بين المعرفة والحكمة.

إنَّ مأزق النموذج الحديث يشـير بوضوح إلى ضرورة المراجعة العميقة. فالتجربة الإنسـانيَّة لا تسير بخطّ مستقيم، ولا تتقدّم بمجرَّد تراكم الإنجازات. فحين يبلغ نموذج ما حدوده، يصبح الإصرار عليه شـكلًا من العمى، لا من العقلانيَّة. والـذات المأزومة، بما تحمله من قلق وتعب

وفراغ، هي إشارة إنذار حضاريَّة.

من هنا، يمكن النظر إلى الأزمة بوصفها لحظة كاشفة. لحظة تُظهر أنَّ الإنسان لا يستطيع العيش داخل معادلة تختزل وجوده في الاختيار والأداء، ولا داخل تصوّر يفصل الحريَّة عن الغاية. وهذه اللحظة، بما تحمله من ألم، تفتح في الوقت نفسه إمكانًا للتفكير من جديد في معنى الإنسان، وفي شروط حياة قابلة للسكن.

إنَّ تجاوز المأزق يجري عبر شجاعة فكريَّة تعترف بأنَّ الذات ليست كافية بذاتها، وأن التحرّر لا يكتمل إلا حين يرتبط بمعنى، وأنَّ العقل يفقد إنسانيَّته حين يُعزل عن السؤال الغائي. عند هذا الحد، يصبح السؤال مفتوحًا من جديد بوصفه أفقًا: أيّ إنسان نريد أنْ نكون، وأيّ عالم يمكن أنْ يسكنه الإنسان دون أنْ ينكسر من الداخل؟

وعلى أيّ حال، فقد آثرنا في هذا العدد العاشر من مجلَّة "أمم"، أنْ نخصّصه لفتح باب مناقشة هذه الذات المأزومة للإنسان الحديث في الغرب.

ففي المحور عالج مجموعة من الأساتذة الأعلام جوانب مختلفة من أزمة الذات، وهم تواليًا مع حفظ الألقاب: (د. علي الخطيب- مصر)، و(د. محمود كيشانه- مصر)، و(د. بهاء درويش- مصر)، و(د. عقيل صادق- العراق).

أمَّا في باب تأصيل، فقد كتب الشيخ (شادي علي- مصر) عن الإنسان من منظور قرآني من العبوديّة إلى الاستخلاف.

وفي باب دراسات وبحوث، فقد وقع الاختيار على بحث أعدَّته (د. هبة جمال الدين- مصر).

أمَّا مراجعة كتاب، فقد اخترنا كتاب (الشيخ عبد الله جوادي آملي) عن ولاية الإنسان في القرآن الكريم والذي تكفَّل بعرضه (الشيخ غسان الأسعد- لبنان).

إنَّنا إذ نقدّم هذا العدد، الذي نتمنَّى أنْ ينال اعجاب القراء الذين كلّنا أمل أنَّهم لن يبخلوا علينا بملاحظاتهم القيّمة.

**والحمد لله أوَّلًا وآخرًا**